تجليات المكان في رواية "أساطير الصحراء" لإبراهيم الكوني المفهوم والدلالة

أ. رحماني زهر الدين* أ. قـــرفـــة زيـــنة**

الملخص:

يعيش الإنسان في عالم يتصف ببعدين أساسيين هما: الزمان والمكان، ففيهما يحيا الإنسان وينمو الجنس البشري ويتطور. والمكان تاريخيا أقدم من الإنسان، والإنسان بوجوده وكينونته في المكان يعيد تشكيله وتحويله إلى أشكال مختلفة حسب احتياجاته الحياتية، ووفق ثقافته. ويمثل المكان في الرواية، عنصرا مهما من عناصر السرد الروائي، ليس لأنه الفضاء الأفقي للنص فقط، حيث تدور الأحداث، ويتحرك الأبطال في دوائر متقاطعة، وتتضح معالم شخصياتهم وتنمو وتتحول، بل لأن المكان في كل أبعاده الواقعية والمتخيلة يرتبط ارتباطا وثيقا بالجانب الزمني والتاريخي للنص وشخوصه، بحيث ينتج عن التفاعل (الزماني- المكاني) منظومة سردية تنتظم في الشكل الروائي الذي تم اختياره لتقديم الأحداث والأشخاص، وتفاعلاتهم النفسية والحركية مع المكان. وقد تطرقت في هذه الدراسة إلى تجليات المكان في رواية "أساطير الصحراء" لإبراهيم الكوني المفهوم والدلالة، ولما كان للمكان ذلك الأثر الجليل على كل مناحي الحياة، ولما له من الحضور الكثيف في النفس الإنسانية، وما ينهض به من المهام الجسيمة في بنية الرواية وتركيبها، أصبح في حاجة ماسة إلى مزيد من الدراسة ومزيد من الرصد للكشف عن دلالاته بوصفه وسيلة يقدم من خلالها الروائي مواقفه ورؤاه تجاه الواقع وما يزخر به من مختلف التناقضات وضروب الصراعات.

(*) أستاذ مساعد/قسم اللغة والأدب العربي/كلية الآداب واللغات/جامعة البشير الإبراهيمي/برج بوعريريج/الجزائر

(**)أستاذ مساعد/قسم اللغة والأدب العربي/كلية الآداب واللغات/جامعة البشير الإبراهيمي/برج بوعريريج/الجزائر

The Poetics of Place in "the Legends of the Desert" Novel to Abraham Al-kawni concept and significat

Abstract:

This study handles the poetics of place in "the Legends of the Desert" Novel to Abraham Al-kawni concept and significat will be used as the study sample where the aristic dimensions and analytical way immeasurable qualities of place will be divides into two chapters :

Chapter one : introducing this great novelist through her masterplaces and position in literature taking into account

Chapter two : the poetics of place in "the Legends of the Desert" Novel to Abraham Al-kawni

In addition to its introduction , conclusion and list of references.

تمهيد:

لقد حضي المكان كعنصر من عناصر الرواية باهتمام الروائي الليبي (إبراهيم الكوني) شأنه في ذلك شأن الكثير من كتاب الرواية، وفي روايته من أساطير الصحراء يتجلى المكان لنا بوضوح كواقع حقيقي وخيالي، وكبناء فني بدرجات متنوعة، على امتداد مساحة الرواية، حيث اختار الكوني عالم الصحراء الليبية والمغرب وموريتانيا، لتصوير عالمه الروائي، هذه المنطقة التي ظلت لآلاف السنين موطنا لقبائل الطوراق التي تتداخل حدودها وتتلاشى في الصحراء الشاسعة، فالصحراء/المكان تظهر بوصفها إطار يحتضن الطوارق في رحلتهم الأبدية وسط هبوب العواصف.

إن الصحراء تستأثر باهتمام كبير في رواية من أساطير الصحراء ، فهدوءها، وغضبها، وصفاؤها وعتمتها، وأمانها وغدرها، يترك أثره الكبير في نفسية الشخصيات وكذلك في الأبنية السردية والأحداث واللغة.

1- دلالة المكان في الرواية:

يهيئ (إبراهيم الكوني) الصحراء كمكان مركزي تنطلق منه أحداث الرواية، وتستدل في ذلك من عنوان الرواية "من أساطير الصحراء" فمن خلاله نرى أن معظم أحداث الرواية كان مستقرها الصحراء، كمكان "يحفر آثارا عميقة وأخاديد واضحة في الشخصية"(1)، فالكوني ينطلق من المكان ليكون أحد أهم أبطاله المتواجدين في روايته، حيث كان للصحراء بما تحمله من طقوس عدة دلالات .

فالكوني يعتبر الصحراء "موطن الرؤى السماوية "(2)، فهي تستلزم رحلة مكانية يحيل فيها الواقعي إلى رمز ذهني، لتُرى كصورة رمزية على امتداد الرواية كصورة تعتمد على الخيال والواقع لصنع الهوية المكانية. وفي روايته **"من أساطير الصحراء"** قد قدم مجتمعات هامشية تعيش على تخوم مجتمعات متماسكة ذلك أنها متينة كونها مجهولة للملتقي الذي اعتاد نوعا من التلقي الخاص بعوالم مختلفة، ومن ثمة فإن الجهل بها إنما هو نوع من القصور الذاتي، ذلك أن الثقافة الحديثة تعتبر حواضرها مركز انطلاق، ومحاور للمعاني، وما عداها أطراف لم تندرج في سياق التاريخ، وبالنسبة لطوارق الكوني فالأمر يختلف، فالأصح لهم هو اعتبار العالم بعيدا عن الصحراء هامشا أما الصحراء بالنسبة لهم فهي المركز، ففي قلب ذلك المكان الشاسع، تتأسس كتلة

قيم اجتماعية ضخمة لها تصوراتها للعالم والحياة ولها حكاياتها وأساطيرها، وبالتالي فالصحراء هنا من الأمكنة التي تكون فضاء للرواية كمكان أشمل وأوسع، كما يتجلى لنا في الرواية: " .... يعود إلى الصحراء متعبا ....، يستسلم لحلم مبهم، فترقص على شفتيه ابتسامة مجهولة ...."(3) لتدل في موضع آخر على الضياع لاتساعها، "استمرت الصحراء تتمدد وتتباعد طول السفر. العراء الفسيح، القاسي، الأبدي، يلد في نهايته أفق لئيما ... "(4) وفي موضع آخر "طاف الصحراء كلها، ولكنه لم يتوقف عن السفر. يهجع في العراء. أو يبيت تحت شجرة برية"(5).

ويورد(إبراهيم الكوني) الصحراء على أنها عالم متموج وممزق، متناثر وكأنه تيه أبدي، لا يتم فيه العثور إلا على حيوات محكومة بدوافع غامضة وغريبة وساعية إلى أهداف متناقضة، تتعارض فيها القيم، فالصحراء كمكان تشير في دلالتها المباشرة إلى مكان بعينه، إلا أنها في ميثاق نص الرواية تحمل دلالة رمزية هي الحرية "ذلك أن الصحراء، لا تخضع لسلطة أحد، ولا يملكها أحد، وتكون الدولة وسلطاتها بعيدة بحيث لا تستطيع أن تمارس قهرها ولذلك تصبح أسطورة نائية"(6) وهذا ما يتجلى حسب الرواية: "الجدة تعيد وتكرر: كل من أقام تحت سقف أو استقر في أرض هو عبد. نقول أن لا حرية بدون صحراء. لا حرية إلا لمهاجر في صحراء الله الواسعة. هل سمعت برأي كهذا من قبل؟"(7).

لتنتقل الصحراء من دلالة الحرية إلى دلالة الموت والعذاب، وذلك حسب معادلة وحشية: "الحرية هي الصحراء. والصحراء هي الجذب. الموت. إذن الحرية هي الموت"(8) فحسب هذه المعادلة نرى أن الصحراء تحمل دلالة نفسية انعكست على الشخصيات بصورة سلبية حيث أصبحت تؤدي لمعنى الموت .

ونجد الروائي يتعرض للجبل كمكان بدلالته الأسطورية، حيث كان يراه الولد في قماطه، حيث تمرد الجبل على الحضيض، فكان هذا الجبل عنيدا، يهدي الطفل إلى بروج أخرى إلى أن تمرد الطفل على القماط (القيد) حيث كان يمثل القماط السجن للطفل، فهذا الطفل أخد يفتش ويكتشف خفايا ومجاهل الجبل "وجد لوحًا حجرياً مدفونا في كهف يجاور الشرفة العليا، لم يكن معتم اللون كبقية الحجارة في الجبل"(9) ومن هنا نكتشف بعض الأماكن التي يضعها الكوني كمكان أسطوري، "حيث أن هذه اللوحة كانت مكانا يضم في جوفها رجالا، يخفون وجوههم بأقنعة، يحملون المحراب ليطاردوا أشباحا نصفها الأعلى مخلوقات بشرية ونصفها السفلي حيوانات

حقيقية"(10) فاللوحة "كانت أشد تأثيرا، بما تخفيه لما تكتشفه الشخصيات"(11) كما كان للجبل، الغار، اللوحة الحجرية، كأمكنة مندمجة تأثير نفسي للشخصيات حيث أثار الدهشة، ومن خلال هذا الدمج للأمكنة "تتوحد الصورة المتنوعة في أعماق المكان"(12) فهذه الجزئيات شكلت مكونات أسطورية منحت جمالية للمكان بوصف مكان أسطوريا.

وقد شكلت إستراتيجية الجبل عند الكوني حركة دائرية في جزئية الجبل ومن هنا كان في مجمله يتحكم في حركة السير، حيث كان مصدر الكنز (اللوحة الحجرية)، وكذلك عثور الولد على قلة وجمجمة "وهذه الجمجمة كلمته بلغة لم يفهمها"(13). والقلة التي كانت مكان للمارد (الجن)، ولكن أثناء كسر القلة من طرف الأشقياء "تدفق منها مسحوق لعوب....دفع في الفضاء قامة عجيبة، راح يتمدد، حتى احترق الفراغ، وحجب بقامته قرص الشمس، أطلق قهقهة كريهة، فتزلزلت الأرض، وتمخض الجبل فزعا"(14)، فهذا الجبل المكان الذي بني بناءا أسطورياً جعل من هذا العمل السردي عملاً إبداعياً.

وتتوالى الحكاية، لتخبرنا أن الولد رحل بعد ما حدث في الواحة، ولكن بعد رجوعه وجد أن الجبل فقد قامته وعندما سأل العراف عن البلاء الذي حل بالجبل قال العراف: "الخلق لم يهلكوا الجبل بالرغم من أنهم دنسوه، وحرثوه بحثا عن كنزهم اللعين، ولكن الجبل الذي تغير وبدأ يصير إلى الزوال ليس جبل الواحة، ولكنه جبل آخر حملته أنت"(15)، فحمل الولد للجبل لا يمكن أن يكون حقيقة في واقعنا، ولكن الكوني جعل من حمل الجبل الذي هو مكان ثابت يحمل في ثناياه أفق بعيدة، وهذه الأفق البعيدة، تجعلنا نغرق في حلم كوني شاسع "ومن لا يسعد لهذا المرح الكوني"(16).

كما تجدر الإشارة إلى المعنى الرمزي للمكان المستمد من الخيال، بقيمته النفسية الجمالية، فالإحساس يكشف به عن التناهي في العلاقة بين الشخصية الروائية والصحراء، وتكون اللغة هي أداته في ذلك، فهذه الرواية من أساطير الصحراء تحمل دلالات لا نهائية تجعل لا المكان فقط بل وحتى أبسط أشيائه تنعكس في نفسية الشخوص، وتستحوذ على ذواتهم حيث نجد (الواحة) تخرج من بعدها النفسي من رمزها التقليدي كونها مكانا للاستقرار، لتصبح قيدا يشد قاطنها إلى الأرض مما يجعله عبدا لها يتنازل أمامها عن حريته وهذا ما يتجلى لنا واضحا في الرواية عندما سألت تازيديرت جدتها العجوز "...سألت بعد صمت، وهل أهل المدن عبيد؟، أجابت بلا تردد: طبعا

عبيد/وأهل الواحات؟، هزت رأسها موافقة قبل أن تدعم موقفها باللغة: أيضا عبيد، كل من نام تحت سقف أو أقام تحت جدار، كل من استقر في الأرض"(17)، وفي مصاف آخر نجد أن الواحة رمز للخوف، مما انعكس هذا الأمر سلبا على نفسية الشخوص، فنجد تازيديرت لا تذكر من حياة الواحة "سوى عدوين: الرمضاء، والعجاج"(18)، فالمكان هنا وصف تعبيري للحالة النفسية لتازيديرت.

كما نجد الحياة في الواحة كانت حياة بائسة و"المجاعة أهلكت نصف القبيلة... نجا القليلون، الذين تشبثوا بحياة بائسة في الواحات"(19) حيث يستعمل الكوني الواحة/المكان ليوضح هموم الإنسان الصحراوي وهي أيضا تمثل رمز الصبر.

والكاتب يجعل من الصحراء رمزا للفخر والانتساب، ففي حوار جرى بين الأب وابنه: أن الرجل "لا بدّ أن يتعلم الشعب إذ أراد أن ينتمي إلى الصحراء،..... هل أنت فخور بأنك ابن الصحراء؟ ... أجاب الولد بلا تردد، طبعا "(20). كما يمكن أن تنبثق للمكان دلالات من خلال شكله، أو بعض متعلقاته من زواياه المختلفة فنجد الكوني يورد الصحراء "...تنفطر الأرض، وتنشق الأحجار عن ألف نوع من النبات، تخضر الصحراء في بضعة أيام، وتتغطى الأودية الجرداء بالأحراش، وتتفتح الزهور...."(21)، فتوظيف اللون يمدنا في حد ذاته بصورة مرئية للمكان، كما أن تحديد اللون بعينه له نقلة في الدلالة، فاللون الأخضر ينطوي على دلالات الحياة، الخلود بما يثيره هذا اللون في ذاكرة المتلقي من ارتباطه (أي اللون) بسيدنا "الخضر عليه السلام" وهو ارتباط نابع من المعتقدات الشعبية، مما يؤكد أن "الألوان ذات قيمة سيكولوجية واجتماعية لا يمكن انكارها"(22).

وفي رحلة الأب هب عليه "نسيم شمالي مبلل بماء البحر البعيد"(23) فقد كان **للبحر/المكان** دلالة على الأمل بعد التيه والسراب الذي مرّ به، وقد كان للسهل بعد نفسي، فأثناء وصوله إلى الرابية "امتد سهل فسيح من الحضيض في الحواف، المكسوة بحجارة كثيفة سوداء .....، فسيحة مكتظة بالبابونج والجرجير والشيح ونباتات أخرى كثيرة"(24) حيث كان يبعث السهل "الهدوء في نفوسهم والحالمين الذين تثير فيهم القلق"(25) فالسهل "كثيرا ما يعتبر عالماً منبسطا"(26) أما الوادي، فهو يعد أهم الأماكن أو العناصر التي تتشكل منها الصحراء، لذلك نجد الكوني يستخدمه بكثرة وذلك لما يحمله من دلالات، "حيث شكلت الأودية مرتعا للرعي وذلك لأنها أقرب، وحواشيها غنية بالأشجار البرية"(27)، وهذا السبب جعل تازيدرت تلجأ إليها "بفعل آليات نفسية"(28)،

وبهذا كانت الأودية نهلا لتغذية القطيع. وفي مصاف آخر نجد أن الكوني يستخدم الصخور وذلك بطريقة سيكولوجية فيقول: "جلست فوق الصخور السوداء"(29)، فهذا اللون (الأسود) أنعكس على نفسية تازيدرت، وإذا حاولنا أن نتصور وصف المكان الروائي بالقتامة والظلمة والسواد مستوحاة من الظلمة قد يرمز إلى الغموض، المجهول والقلق وهذه دلالات يستوحيها من "ارتباط اللون الأسود بكلمة حجر، صخر بما تثيره الكلمة في ذهن المتلقي من تصور لضيق الحجر"(30)، ومن خلال ما تقدم نجد الكوني يوظف المكان في تعبيره الإستعاري للحالة النفسية للشخوص، فيبدوا المكان وكأنه رؤية ذاتية، فالعالم الروائي لا يعلن عن نفسه بالحركة والفعل فقط، بل يشرك المكان، حتى يغدو ظاهرة متواترة، وسمة أساسية للتجربة الفردية والجمعية، في المحيط الطبيعي، الذي يصفه الكوني عند حديثه عن العراء الفسيح القاسي. وهذا ما يتجلى في الرواية، "تنهد الأب ثلاث مرات متتالية، يتعلق الأمر بالأفق البعيد....ولكن العراء لا ينتهي والأفق لا يستسلم"(31)، فحالة الأب وتعبه إلى جانب ابنه الذي رحل معه يستمد وصفه من وصف المكان حولهما.

كما استطاع الكوني أن يتمثل الأخلاقي والفلسفي والأسطوري، بنزعة وجودية بارزة فوحّد بين ما هو واقعي وما هو متخيل أو أسطوري، وما هو مثالي (فواو) هي تلك الواحة (الأسطورة) التي يتشوق الشخوص لدخولها فهي كانت تمثل الجنة، "الوطن المفقود.... واو وطن بين الأوطان، ثمة من يحملها في قلبه ويهاجر وثمة من ينفق عمره طلبا لها"(32)، فكانت واو بمثابة الحلم وسط ذلك العالم المجدب، ولعل الكوني هنا حاول أن يحل شفرة لغز الوجود والبقاء لدى الإنسان الذي حيره (أي الإنسان الصحراوي).

كما أن الدلالة المستوحاة من المكان قد لا تنبثق-بالضرورة- من المكان برمته، إذ يمكن أن تنبثق من أحد عناصره أو أحد معلقاته، فتحليق الطير في السماء -مثلا- يمكن تفسيره "على أنه رمز للحرية والأنا الأعلى، لما ينطوي عليه من مثالية وأهداف نبيلة"(33)، وهذا ما جعل الفتاة التي كان يراها ميلود غزالة تشعر بأنها "خفيفة كالريشة تستطيع أن تحلق .... كالطيور"(34)، فالسماء في حد ذاتها يمكن أن تكون رمزا للاعتلاء والصعود الروحي والقوة والخلود، "ذلك أن السماء في كثير من المعتقدات الشعبية مقرا للآلهة"(35)، فوجود الغزالة في السماء –مقر الآلهة-قد يعد رمزا للسمو الروحي والفضيلة الأخلاقية، والطهر الملائكي.

ثم إن الولوج في عالم الأمكنة للرواية نجد أنها تزخر بالعديد من الأمكنة التي أعطت دلالات مختلة، فهناك دقة كبيرة وتفاصيل كثيرة يوردها الكوني للصحراء، نبينها في الجدول كالآتي:

المكان	دلالتـه
الـرواية القـادرية	المكان الحقيقي للخروج من الظلمات والجحيم
سفح جبل طاسيلي	المعانات و التعب (دلالة نفسية)
القبـر	المأوى، مكان للحماية
جبل حسنـاوة	مركز انطلاق الأساطير
الحقـل	مـركـز الـرزق
الأكواخ	الدمار والخراب (دلالة نفسية)
البث	سجن بعد الغزوات (دلالة نفسية)
الأفق البعيد	دلالـة نفسية : الانتظار، الفراغ، البحث عن الغزالة
غابة الرتم	الفرح، الضحك، الحلم، الجنة (دلالة نفسية) ظهور الطائر المقدس (دلالة أسطورية)
فوق الوادي	الضياع (دلالة نفسية)
عمود الخيمة	مكان للعذاب، الضرب والسوط
باطن الأرض	دلالـة أسطورية، الزهور الأسطورية التي تلاحقنا في الأودية والسهول
الأرض والسماء	دلالـة أسطورية، العبادة واعتبارها آلهة.
نهايات الحمادة	الضيـاع

يمكن القول أن المكان في رواية "من أساطير الصحراء" يورده الكوني – في معظم الأحيان- بدلالته النفسية، الأسطورية والاجتماعية مما أضفى على المكان جمالية، وخلفية فنية، ومن دلالة المكان ننتقل إلى جزئية أخرى قد تشكل جمالية في مكان الرواية ألا وهو المكان الجغرافي والطباعي.

2- دلالة المكان الجغرافي والمكان النصي في الرواية:

2-1- دلالة المكان الجغرافي:

إن تتبع المكان في رواية "من أساطير الصحراء"، يفتح أمام القارئ أكثر من قراءة، بالنظر إلى الكثافة والتركيز الكبيرين الذين وظف بهما المكان الجغرافي، فالأماكن في الرواية مفترضة ومقابلة لأمكنة الرواية التقليدية، علما أن معظم الأمكنة هي جغرافية واقعية أضاف عليها إبراهيم الكوني صيغة تخيلية مثل: جبل حسناوة الذي ذكره الكوني في عدة مراحل من روايته: "....الأمطار تسقط على المرتفعات في جبل حسناوة، أو جبل نفوسة"(36)، الواحة والصحراء الشمالية والصحراء الجنوبية في قوله: "الواحة تقع في نقطة التماس بين الصحراوين: الشمالية الطينية والجنوبية الرملية"(37)، ونجد أيضا آير، بلاد السود، تونس، الجزائر...الخ في قوله: "تشتت القبائل، هاجرت عشائر إلى آير وبلاد السود، ورحلت عائلات أخرى إلى تونس والجزائر وتمبكتو، وبقيت بقايا الشتات تنتقل في الحمادة التي تعاني من استبداد الشمس وقساوة الجفاف الطويل"(38)، كما أضاف لمسته التخيلية على مكان واقعي، هو من معالم ليبيا وأكثر ما تعرف به هو تاسيلي "ليس الهتاف، ولا النداء مدهشا بالنسبة لرجل مثله عاش حياته كلها في الجن والأشباح تاسيلي"(39).

وفي الوقت نفسه نجد بعض الأمكنة الافتراضية، التي استوحى منها الكاتب حكاياته الأسطورية وقصصه العجائبية، كالوطن واو الذي هو الجنة الموعودة التي يسعى إليها الصحراوي للتخلص من العناء والبأس والشقاء والتمتع بالهدوء والسكينة والتمتع بالزاد الوفير، في قوله: "واو أبعد من كانوا وأقرب من حبل الوريد، ... واو وطن مفقود، واو وطن فريد بين الأوطان"(40) "و...ولو لم يكونوا سعداء لما قتلهم الحنين شوقا للعودة"(41).

وقد ارتأينا في هذا البحث الاقتصار على التقاطبات المكانية، التي "تأتي عادة في شكل ثنائيات ضدية، تجمع بين قوى أو عناصر متعارضة، بحيث تعبر عن العلاقات والتواتر التي تحدث اتصال الراوي أو الشخصيات بأماكن الأحداث"(42) ومن هذا المنطلق يمكن دراسة التضادات المكانية في رواية "من أساطير الصحراء" لإبراهيم الكوني، ومن خلال الجدول الآتي الذي يوضح بعض هذه التضادات الثنائية، ستعتمد الدراسة على:

الوطن واو	الصحراء
السماء (الأعلى)	الأرض (الأسفل)
القمـة	السفـح

الوطن (واو) / الصحراء:

نجد أن كلا من الوطن واو والصحراء، حملا الكثير من الدلالات والتضادات جملية والتي أعطت روحا جديدة للرواية. حيث نجد أن كلا من الوطن (واو) والصحراء مكانين مفتوحين إلا أن الوطن (واو) مكان حسي متخيل : "تذكر أن واو هي السراب"(43) والصحراء مكان واقعي: "لماذا خلق الله الصحراء صحراء"(44)، ومن خلال المخطط التالي نوضح مميزات وخصائص كل من الثنائيتين التي تجعلنا نرغب في ذلك المكان أو ننفر منه.

المخطط 1 : يوضح تضادات و ثنائيات الوطن (واو) والصحراء:

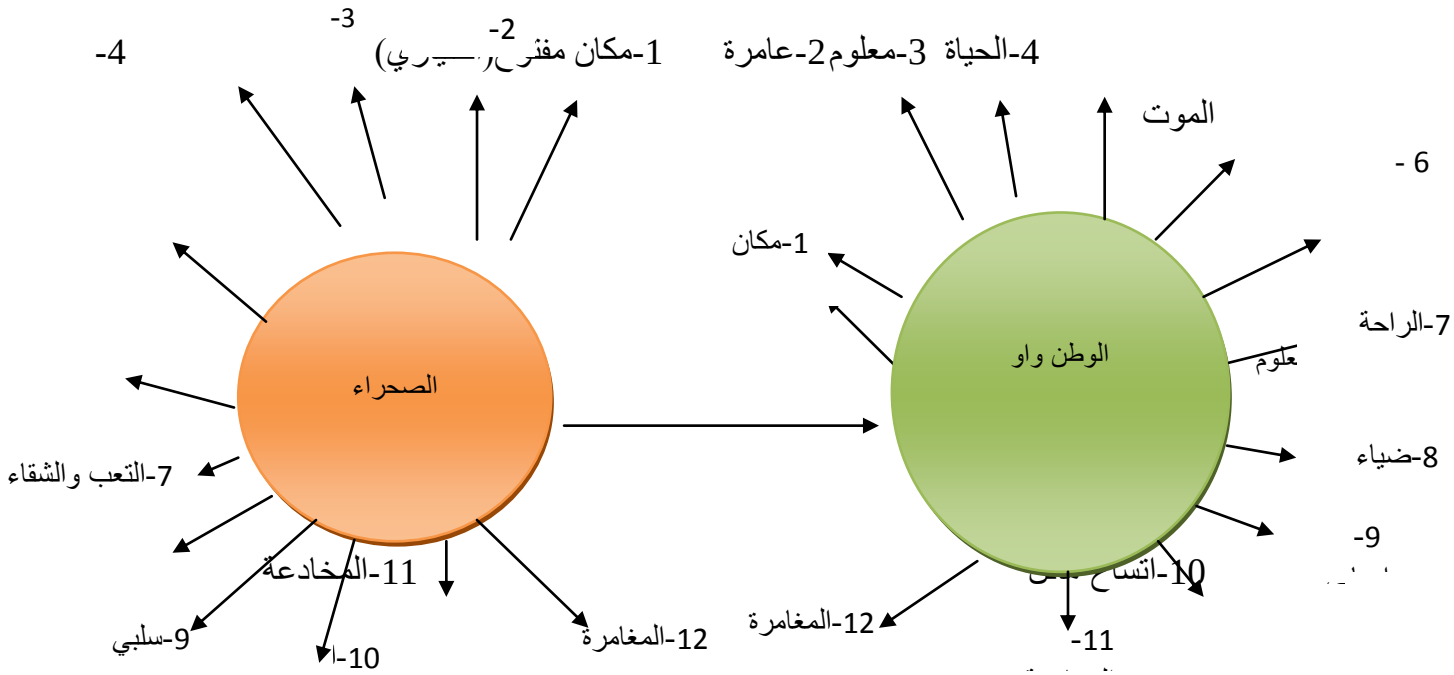

السماء/الأرض:

في الرواية نجد أن الكاتب الكوني تطرق إلى ثنائية أخرى لا تقل عن سابقتها أهمية، باعتبارهما من العناصر الكونية الثابتة ولما لهما من أثر بارز عند الإنسان لعظمتهما، فكلاهما مكانان مفتوحان لامتناهيان. "...فطرد من فردوس النعيم ليجد نفسه وقد تحول من ملاك سماوي رحيم إلى إبليس أرضي رجيم"(45)، وفي موضع آخر "... يشاهد السماء النقية وهي تقترب من بدن الصحراء لحظة الغروب، تنزل الظلمات فليتحم العشيقان في عناق محموم"(46

المخطط 2 : يوضح ثنائيات السماء والأرض:

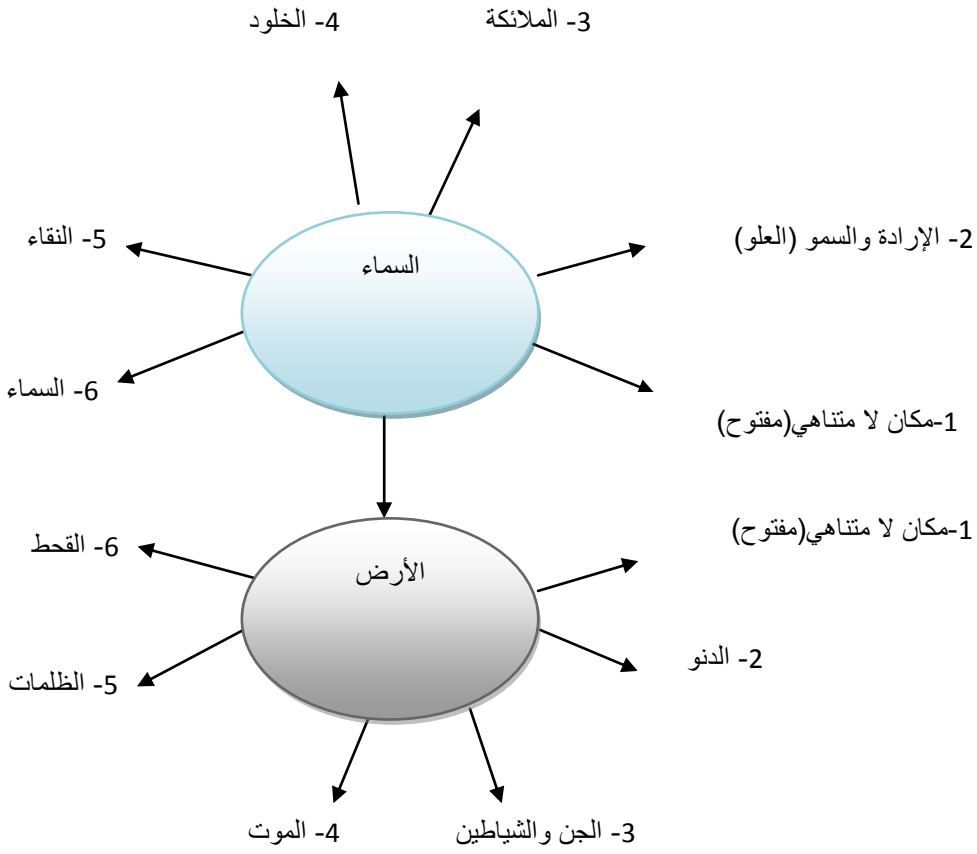

القمة/السفح:

وقد أخذ الجبل مفاصل مهمة في ثنايا الرواية، وذلك لأهميته الكبرى في حياة الصحراوي، "الجبل: عماد الكون الصحراوي المكابر، ونضب الآلهة ومعلقم العظيم"(47)، كما أنه يعتبر

"معبد الودان وحرم الصحراء، في كهوفه تولد المخلوقات، وفي قمته تصعد إلى السماء ... حفظ وصبايا الأسلاف ... في حضنه يتلاقى أهل الصحراء بأهل الخفاء..."(48)، وباعتبار الجبل يتكون من قمة وسفح، كذلك أحلام الصحراوي، ومراحل حياته، ومنه ارتئينا أن نقيم مفاضلة في شكل مخطط بين قمة وسفح الجبل.

المخطط 3 : يوضح تضادات وثنائيات القمة و السفح:

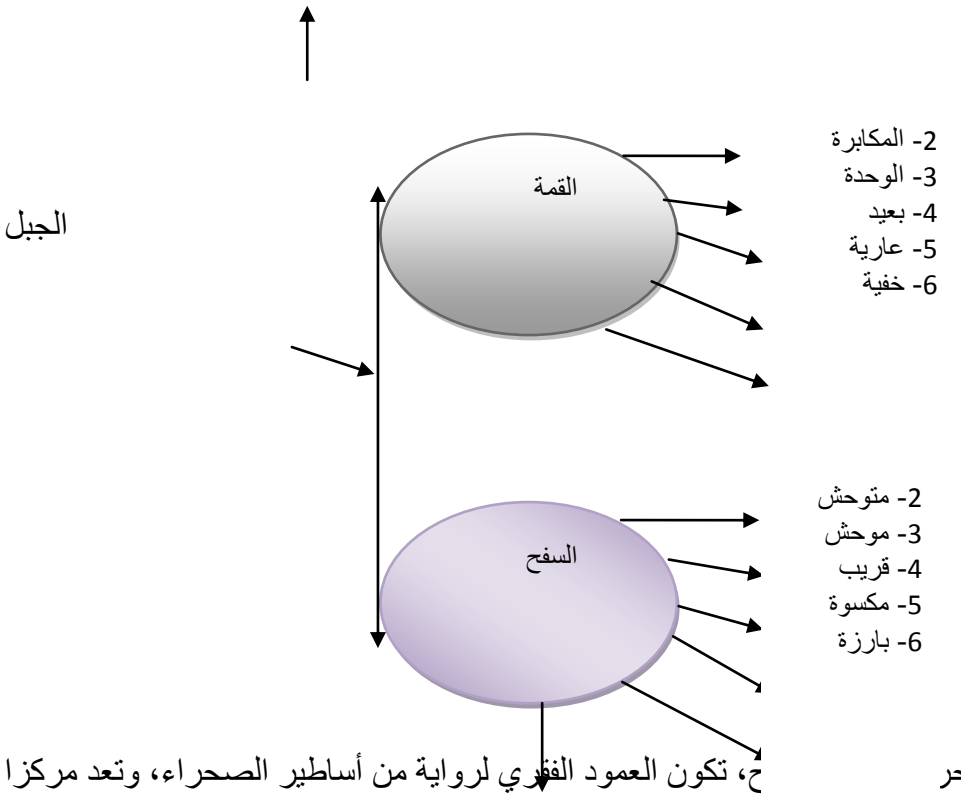

والصحر ح، تكون العمود الفقري لرواية من أساطير الصحراء، وتعد مركزا لكل ما حولها، فإذا أمعنا النظر في الرواية، نجد أن الكاتب بنى شكلا معماريا بواسطة الكلمات للمكان،متواصلا من العمق بامتداد أفقي رائع، ومن السطح إلى الأعلى، ومن السطح إلى الأسفل، بصورة متناسقة وجميلة، وضمن هذه الامتدادات الأفقية والعمودية،

وضح اتساع المكان، وأعطى أجمل الدلالات، والرسم الآتي يوضح لنا الصورة الجمالية لعلاقات المكان في الرواية.

المخطط 4: الصورة الجمالية لعلاقات المكان في الرواية .

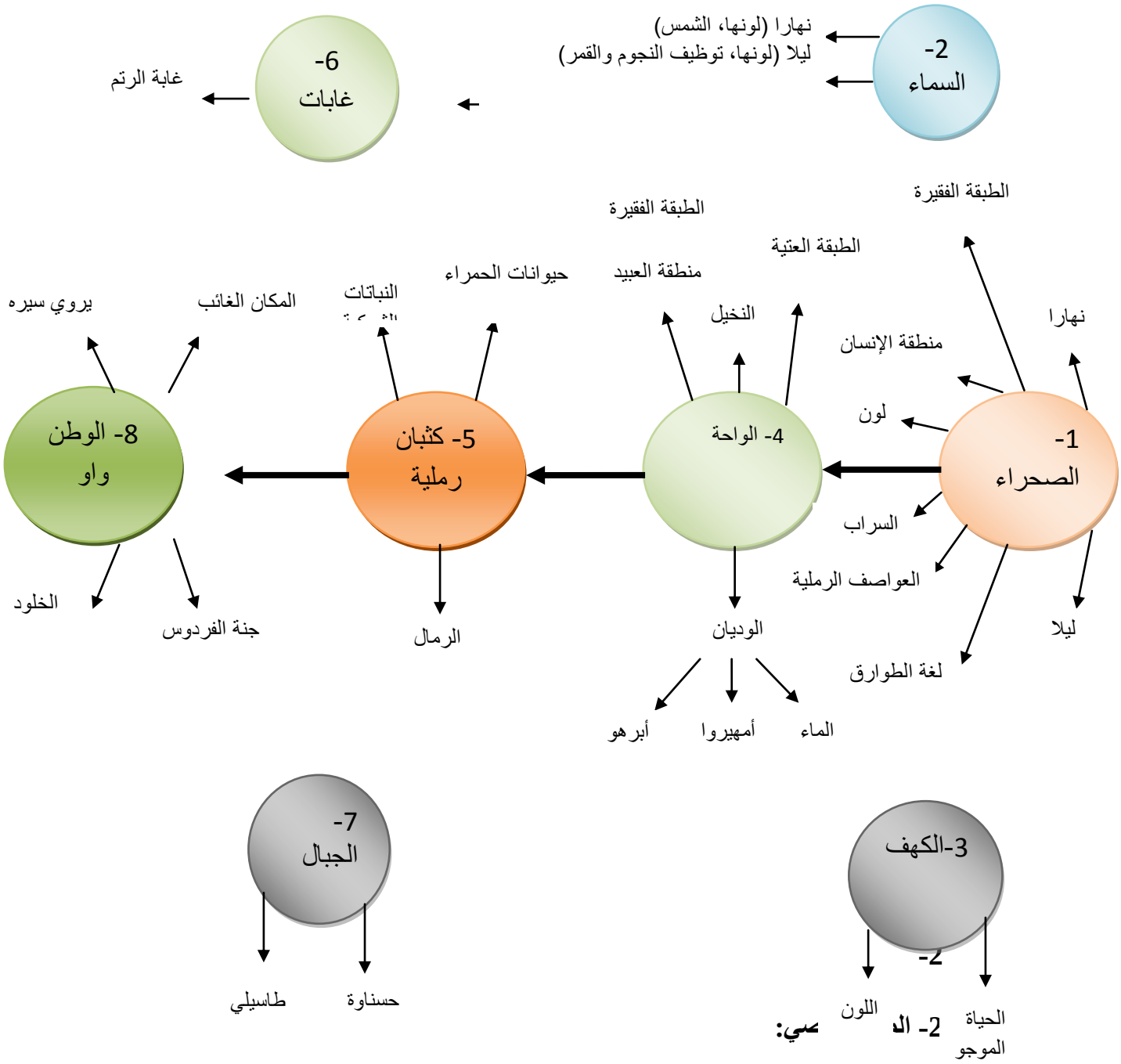

2- الـ **ـمي:**

إن ما يلفت الانتباه، عند رؤية رواية "من أساطير الصحراء" للكوني للولهة الأولى هو العنوان "كونه أعلى اقتصاد لغوي ممكن يفرض أعلى فاعلية تلقي ممكنة مما يدفع إلى استثمار

التأويل"(49) وهي الميزة التي تطبع عنوان الرواية موضوع الدراسة، إذ يتشكل من ثلاث مفردات فحسب.

وإن نحن ألقينا نظرة على البناء النحوي لجملة عنوان الرواية، وتقدم لفظة على أخرى وجدناها تأخذ التشكيل الآتي:

أو

من / أساطير / الصحراء ← أساطير / من / الصحراء

فالمعنى في العنوان يدل على معنى واحد وثابت، وسنعمل على تجزئة هذه البنية إلى وحدات أخرى في الترسيمة التالية:

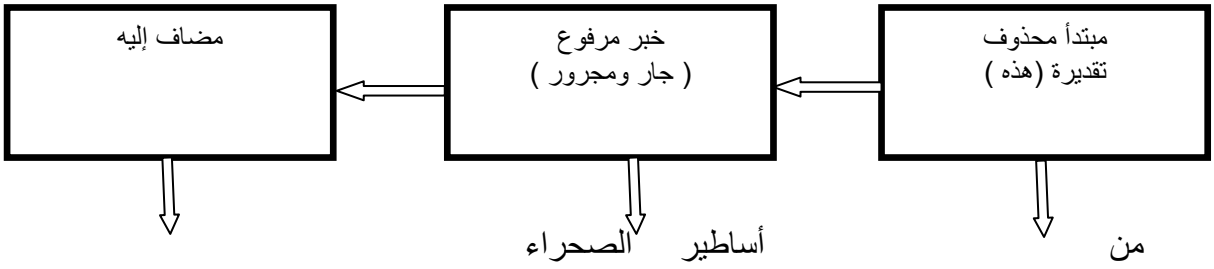

يختزل العنوان إلى (من أساطير) التي جاءت خبرا مرفوعا (مسند) لمبتدأ محذوف تقديره (هذه)، متبوعة بكلمة (الصحراء) مضاف إليه، أي أن العنوان ورد تركيبيا إضافيا يتلقى القارئ من خلاله أول دفعة شعورية (من أساطير) جار ومجرور لا تشير إلى شيء محدد، فـ(أساطير) جاءت نكرة، ثم عرفت بالإضافة، فوردت كلمة أخرى (الصحراء) التي جاءت لتنوب عن (أل) التعريف التي حذفت في الاسم الذي أضيفت إليه لتفيد بذلك الاختصاص، والتحديد الدقيق ليكتمل البناء وتتم الدلالة التي يبتغيها صاحبها.

ولقد ورد العنوان جملة اسمية ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى قول سيبويه: "وأعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض، فالأفعال أثقل من الأسماء، لأن الأسماء هي الأولى، وهي أشد تمكنا ... ألا ترى أن الفعل لا بد له من الاسم إلا لم يكن كلاما، والاسم قد يستغني عن الاسم"(50) فالكاتب إذن ارتضى أن يكون العنوان على هذه الشاكلة، وبهذه الصورة التركيبية، لقوة الدلالة الإسمية من ناحية. ولأنها أشد تمكنا وأخذا على الذوق السليم من الدلالة الفعلية من ناحية أخرى،

وقد كان العنوان بارزا واضحا مكتوب بخط سميك، كما أن الروائي اختار (من أساطير الصحراء) على عنوان آخر، إشارة منه على عظمة الصحراء وقدسيتها بالنسبة إلى ساكنيها، وتشويق القارئ لمعرفة الأحداث والأخبار والقصص، وإلى جانب العنوان يختص هذا العمل بتسجيل صاحبه.

يتكاثف عنوان الرواية المجسد على الغلاف الخارجي، مع الصور والتشكيلات والرسومات التي قد تكون شارحة للمكان النصي (الطباعي) ومنبهة على علوق شديد مع متن الرواية، وإن أهم ما يميز غلاف الرواية الأمامي الخارجي طغيان اللون البني بدرجات مختلفة، إذ ترسم الصحراء، وتأخذ حيزا من صورة الغلاف، كما تظهر صورة الرواية صورة شخصية لرجل ملثم ضخم الجسم، وسط تلك الصحراء وهو الإنسان الطرقي، ولربما كانت هذه إشارة على الإرادة القوية والصمود في ذلك الوسط الموحش.

إن هذا شرح مبسط ومختصر لأجزاء هامة سيتعرف القارئ في المتن، كما قد يفسر بعض الشيء من إستغلق عليه فهم عنوان الرواية، وبقراءتنا هذه نكون قد أبنا شقا هاما من تشكيلات المكان النصي في رواية "من أساطير الصحراء"وأمطنا اللثام عن دلالات تشكيلات غلاف الرواية بما يتضمنه من عنوان ورسوم وألوان.

3- بلاغة المكان في الرواية:

في دراسة بلاغة المكان في رواية "من أساطير الصحراء" عمد البحث إلى دراسة اللغة، لأن بلاغة المكان لا تتأسس إلا بلغة، فاللغة هي التي تعطي للمكان كينونة، وتشكل نسقه العام، وهي التي يؤرخ الروائي من خلالها التاريخ والمكان، وعند دراستنا للرواية وجدنا أن الكاتب حرص في لغته على لإيقاع والتشويق، ومتعة القراءة، فالروائي حرّر اللغة من قيودها ومن جمودها، وانطلق بها نحو التعبير، ولأن لكل بيئة في الرواية لغتها ومفرداتها فإن اللغة في رواية "من أساطير الصحراء" "لغة اكتشاف المناطق المجهولة"(51) فالكوني جعل من اللغة وسيلة ليوضح جمالية المكان الصحراوي، كون "الوظيفة الأساسية للغة الإخبار"(52).

إن من أهم الأماكن التي تناولها الكوني في روايته "من أساطير الصحراء" هي الصحراء، رغم تعدد الأمكنة فيها، ولذلك جاءت لغتها ومفرداتها ذات علاقة بالصحراء،فكانت اللغة جميلة مليئة بالصور، وهذا ما نلاحظه في حوار لتازيدرت مع صديقتها، "السيل قادم. أين يمكنه أن

يطير؟. هل تَظنينه معشوقك وحدك؟. الصحراء أكثر شوقا منك.أرضها أكثر لهفة، وهي تعاني الهجر أكثر منك.أصبري. أين يمكنه أن يطير؟"(53) فهذا الحوار يوضح صورة خيالية جمالية **للمكان/ الصحراء** حيث أصبحت تحمل صفة الإنسان، الاشتياق، اللهفة، العناء، والعشق.

فلغة الرواية تعبر عن "فهم انعكاس فلسفة الكاتب، الحياتية، ونظرته للإنسان والمجتمع، على بناء كلام من عنده"(54)، فاللغة في الرواية تتشكل كموضوع كما يجسده الكوني وهو يصور الحياة بمفهومها الشامل في نصه، من خلال مقاطع وصفية "تتميز بنوع من الاستقلال النصي وتقف بمفردها لوحة ثابتة، يمكن استخراجها من الرواية وحدات مفردة، وكذلك نقوم دراسة تشكيل المكان على استخراج هذه المقاطع ودراسة طبيعتها، وصياغتها، ولكن هذا لا يعني بالطبع أن هذه المقاطع لا تنتمي إلى البناء الكلي للرواية، فبالرغم من استقلالها فإنها توظف توظيفا جماليا في خدمة محور الرواية، وفي إضفاء الظلال والدلالات على مسار القص"(55)

كما أننا نجد أن الصيغ اللغوية تنوعت بتنوع الأماكن والشخصيات، حيث استخدم الكاتب اللغة الفصحى و التي تتلاءم والشخصيات، حيث نجد حوارا للأب وابنه "حدثني عن واو؟، واو وطن مفقود،... هل سبق لك ودخلت واو، سكت الأب لحظة، قال...واو وطن فريد بين الأوطان...، ماذا يفعل الناس في واو. لا أدري ... هل هم سعداء، لا شك في ذلك"(56) حيث نلاحظ أن هذا الحوار هو حوار مبسط، يتلاءم وعمر. الطفل وفهمه.

فاللغة جميلة، دقيقة في الحوار، وكانت لغة الحوار مكونة من جمل قصيرة واضحة لطبيعة المتحاورين "وتم توكيد الحوار بالتركيز والإيجاز والإشارة"(57)، فمن الملاحظ أن الكوني قد نجح بشكل جيد وممتاز في بناء **المكان/واو** من خلال الجمل والكلمات.

فواو مكان متخيل، وأداة تعبير للشخصيات، لما له من تأثير على تلك الشخصيات، ومسار حياتهم، فواو هي تلك الواحة التي وعد "الله سبحانه وتعالى" بها عباده الصالحين، فهي بمثابة حلم وسط ذلك العلم المجذب، فمن خلال اللغة صاغ الكوني **المكان/واو** بطريقة فنية أضفت عليه بعداً جماليا.

وقد كثرت مثل هذه الصور في الرواية، لا يمكن الحديث عنها جملة، ولكن هذه الصور المكانية كانت جميلة مميزة، تشكلت من خلال الأشياء الموجودة في المكان، "والتي كان لها أثرها

الجمالي وهذا هو هدف النص الروائي"(58) وهذا الأثر يشكله المكان وبلاغته المبثوثة في النص الروائي، فالمكان يساهم بشكل أو بآخر في ترك أثر جمالي بضلاله ودلالته وإيحاءاته وآثاره.

الخاتمة

وفي الختام يعد الجانب الجمالي للمكان درجة من الجودة تحسب للروائي لقدرته على اختزان أمكنة مغايرة لما يعهده المتلقي، أو تقديم المكان الذي يعيشه المتلقي في صورة فنية مختلفة. وهكذا نجد أن المكان له دلالته الواضحة في رواية (أساطير الصحراء)، ويقوم بوظائفه في تكوين إطار الحدث والمخيلة الروائية ومؤشراً للأحداث، سواء كان المكان واقعياً أو متخيلاً، محدداً أو عاماً. فيدخل المكان في النسيج الروائي للكاتب، فلا تهيم في الفضاء المطلق للأفكار الفلسفية المجردة، بل إنها ترتبط ارتباطاً رمزياً وثيقاً بالأرض وما تمثله من خصب ونماء ورسوخ تلمساً لواقعها.

هوامش البحث:

[1]- خالد حسين حسين : المكان في الرواية الجديدة ، ص .46

[2] - إبراهيم الكوني رواية "من أساطير الصحراء"، دار الجنوب للنشر، تونس ط1، 2006 ، ص.109

[3]- إبراهيم الكوني رواية "من أساطير الصحراء" ، ص.26

[4]- المصدر نفسه، ص .109

[5]- المصدر نفسه، ص .132

[6]- يوري لوتمان : مشكلة المكان الفني،ترجمة :سيزا قاسم، مجلة البلاغة المقارنة، القاهرة،ع6، 1986، ص 31.

[7]- إبراهيم الكوني رواية "من أساطير الصحراء" ، ص.71

[8]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[9]- إبراهيم الكوني :رواية "من أساطير الصحراء" ، ص.28

10- المصدر نفسه، ص .29

11- غاستون باشلار: جماليات المكان، ص : .142

12- المرجع نفسه، ص .186

13- إبراهيم الكوني :"رواية من أساطير الصحراء "، ص.29

14- المصدر نفسه، ص .30

15- إبراهيم الكوني: رواية "من أساطير الصحراء"، ص : .32

16- غاستون باشلار: جماليات المكان، ص : .123

17- إبراهيم الكوني: رواية "من أساطير الصحراء"، ص: .67

18- المصدر نفسه، ص:.51

19- المصدر نفسه، ص: .48

20-إبراهيم الكوني: رواية من أساطير الصحراء، ص: .114

21- المصدر نفسه، ص:.62

22- شاكر عبد الحميد:العملية الإبداعية في فن التصوير،دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،ط1997،2،ص:.20

23- إبراهيم الكوني: رواية "من أساطير الصحراء"، ص.134

24- المصدر نفسه، ص:.135

25- غاستون باشلار: جماليات المكان، ص : 185.

26- المرجع نفسه، ص:186.

27- إبراهيم الكوني: رواية من أساطير الصحراء، ص:57.

28- غاستون باشلار: جماليات المكان، ص : 188.

29- إبراهيم الكوني: رواية "من أساطير الصحراء"، ص:61.

30-مدحت الجيار: جماليات المكان في مسرح صلاح عبد الصبور، مجلة البلاغة المقارنة، ، القاهرة،ع 6، 1986 ،ص:40.

31- إبراهيم الكوني: رواية"من أساطير الصحراء"،ص:110.

32- المصدرنفسه،ص:113

33-إبراهيم حافظ: تحول الإنسان إلى طائر في الحكايا الشعبية، مجلة الفنون الشعبية، القاهرة، ع1994،41، ص:43.

34- إبراهيم الكوني: رواية"من أساطير الصحراء"، ص:89.

35- جان صدقة: رموز وطقوس"دراسات في الميثولوجيا القديمة"، رياض الريس للكتاب والنشر، لندن، دط، دت، ص:51.

36- إبراهيم الكوني: رواية "من أساطير الصحراء "، ص.47

37- المصدر نفسه، ص :.52

38- المصدر نفسه، ص:.49

39- المصدر نفسه، ص:.192

40- المصدر نفسه، ص:.112

41- المصدر نفسه، ص:.115

42- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ص:33.

43- إبراهيم الكوني: رواية من أساطير الصحراء، ص.115

44- المصدر نفسه، ص:.67

45- إبراهيم الكوني: رواية "من أساطير الصحراء"، ص.186

46- المصدر نفسه، ص.279

47- إبراهيم الكوني: رواية" من أساطير الصحراء "،ص:.180

48- المصدر نفسه، ص.179

49- محمد فكري الجزار: العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي،ص:.10

50- سيبوية: الكتاب، ترجمة: عبد السلام هارون، هيئة الكتاب، مصر، د ط ، 1975 ، ص: 20:21.

51- حنامينة: الرواية والروائي، دار البث، دمشق، ط1، 2004 ، ص:.23

52- جميل عبد المجيد: بلاغة النص "مدخل نظري ودراسة تطبيقية"، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د ط، 1999 ، ص:19.

53- إبراهيم الكوني: رواية "من أساطير الصحراء"، ص:.75

54- مها حسن يوسف: المكان في الرواية الفلسطينية، رسالة ماجيستير، إربد، جامعة اليرموك، 1991 ، ص:.414

55- الفيصل سمر روحي: بناء الرواية العربية السورية، ص:.103

56- إبراهيم الكوني: رواية "من أساطير الصحراء"، ص:.114:113

57- الفيصل سمر روحي: السجن السياسي في الرواية العربية، ص:.269

[5]8- عبد الله الغدامي: التشريحية، دار الطليعة، لبنان، ط1، 1987 ، ص:12.

قائمة المصادر والمراجع

1- إبراهيم حافظ: تحول الإنسان إلى طائر في الحكايا الشعبية، مجلة الفنون الشعبية، القاهرة، ع 41،1994.

2- إبراهيم الكوني رواية "من أساطير الصحراء"، دار الجنوب للنشر، تونس، ط1، 2006 .

3- جان صدقة: رموز وطقوس "دراسات في الميثولوجيا القديمة"، رياض الريس للكتاب والنشر، لندن، دط، دت.

4- جميل عبد المجيد: بلاغة النص "مدخل نظري ودراسة تطبيقية"، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د ط، 1999.

5- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي -الفضاء، الزمن، الشخصية-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1990.

6- حنا مينة: الرواية والروائي، دار البث، دمشق، ط1، 2004.

7- خالد حسين حسين: شعرية المكان في الرواية الجديدة، "الخطاب الروائي لإدوارد الخراط نموذجا"، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، 1419 هـ.

8- سيبوية: الكتاب، ترجمة: عبد السلام هارون، هيئة الكتاب، مصر، د ط ، 1975.

9- شاكر عبد الحميد: العملية الإبداعية في فن التصوير، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 2، 1997.

10- غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجماعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط6، 2006.

11- الفيصل سمر روحي: بناء الرواية العربية السورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 1995.

12- عبد الله الغدامي: التشريحية، دار الطليعة، لبنان، ط1، 1987.

13- محمد فكري: العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة العامة للكتاب، الجزائر، ط1، 1998.

14- مدحت الجيار: جماليات المكان في مسرح صلاح عبد الصبور، مجلة البلاغة المقارنة، ، القاهرة، ع 6، 1986.

15- مها حسن يوسف: المكان في الرواية الفلسطينية، رسالة ماجيستير، إربد، جامعة اليرموك، 1991.

16- يوري لوتمان: مشكلة المكان الفني، ترجمة: سيزا قاسم، مجلة البلاغة المقارنة، القاهرة، ع6، 1986.